

تاريخ الطب النفسي

بدايات الطب النفسي المعاصر في العراق، قراءة في سيرة ذاتيه

مها سليمان يونس

The Foundation of Modern Psychiatry in Iraq, Exploring Personal Archives

Maha Suliaman Younis

Abstract

This report aims to explore the beginnings of modern psychiatric services through scrutinizing the life profile of the pioneer psychiatrists in The Kingdom of Iraq. Data was collected from the personal archive primarily together with personal interviews with some contemporary physicians and patients and scarce documents. Its realized by this study that the pioneer psychiatrists were the cornerstones of mental health establishments around the twentieth century through their contributions in government and private health centers ,also it showed that the personal archives can be helpful in analyzing the cultural atmosphere through historical facts .

المقدمة

السوي وأحيانا عوامل الحسد(العين) وتأثير السحر (العمل) من قبل المعالجين الشعبيين، اتبعت أساليب متعددة لطلب الشفاء منها تلاوة آيات من القرآن الكريم أو بعض التعاويذ مع لمس المريض (التعزيم) أو شرب أعشابا معينة (السقوة) يرافقها على الغالب أو بشكل رئيسي ، التبرك بالأضرحة المقدسة (الزيارة) أو المبيت فيها برعاية أحد القائمين عليها لأيام عدة (الربط عند الأمام) كما هي التسميات باللهجة الدارجة لنيل شفاعته في الشفاء ، و لم تخلو هذه الممارسات من إيقاع الأذى بالضرب الشديد أحيانا وما زالت قائمة حتى اليوم في القرى الفلاحية و المدن الصغيرة النائية على وجه الخصوص (٢).

أرتبط المرض النفسي في العراق كشأن المجتمعات العربية الأخرى بالمفاهيم الروحية والغيبيات كموامل مسببه وطريقة للشفاء في ان واحد ولعل معظم هذه المفاهيم قد استمدت جذورها من الموروثات الثقافية والإجتماعية الضاربة في القدم أكثر من التصاقها بجوهر و تعاليم الدين الإسلامي الذي يمثل الدين الرئيسي للسكان وعليه ساد الاعتقاد بالإستعانة بالمعالجين الروحيين ممثلين برجال الدين من المعممين (الشيخ و السادة)، عند ظهور الإضطرابات النفسية وبالأخص الذهانية منها لما يعزى لهم من قدرة على السيطرة على المسبب لها كالجن أو الشياطين التي تتلبس المريض وتقلب تفكيره وسلوكه

يحتوي المستشفى على سجل خاص بعدد و أسباب الوفيات رغم تكرارها و بالأخص في أيام البرد الشديد ، وقد أشارت الوثائق إلى استعمال علاج احداث الصدمات بحقن الوريدي للأنسولين الذي استبدل لاحقاً بالعلاج عن طريق احداث الصدمات الكهربائية بالجهاز الخاص بذلك حوالي العام ١٩٤٠ مع بعض العقاقير الدوائية المتوفرة آنذاك .

كان المستشفى ملحقاً ادارياً بوزارة الأشغال العامة و بإشراف مديرية الصحة العامة التابعة لها من الناحية الطبية و الخدمية و العلاج كاملاً بالمجان وكما اسلفنا سابقاً أسهم بعض الأطباء العاميين و المرضيين المؤهلين في إدارة شؤونها ولم تكن فيها عيادة خارجية لفحص المرضى الجدد و المزمنين منذ تأسيسها وحتى زوالها، مما يدل على اكتسابها لصفة (الحجر) أكثر من دورها في التشخيص و العلاج وقد جرت بعض المحاولات لإجراء اصلاحات إدارية وخدمية إبان الأربعينيات ولكنها كانت عاجزة عن الإيفاء بمتطلبات الأعداد المتزايدة للمرضى و اكتظاظ البناية المتهالكة بهم حيث كان عدد المرضى ٧٩٥ (٦٢٨ من الذكور و ١٦٧ من الإناث) يعاني جلهم من أنتشار الأمراض الجلدية المعدية و انعدام وسائل الراحة كالنظافة و التدفئة و لربما ساهمت هذه الصورة الكئيبة في ترسيخ مفهوم الوصمة الإجتماعية المرتبطة بالمرض النفسي .

وقد ورد في تقرير الخبير الدولي في الصحة النفسية الذي تفقدها ضمن زيارته التفتيشية لمؤسسات الصحة النفسية في عراق عام ١٩٥٠ (الدكتور كراوس) جوب إبدالها بمستشفى واسع و جديد و على س علمية حديثة ولم تمضي ثلاثة اعوام حتى تحقق هذا الهدف بأفتتاح مستشفى

المؤسسات الصحية الرائدة في الطب النفسي شهدت بداية القرن العشرين محاولات بسيطة لعلاج الأمراض العقلية و العصبية من قبل بعض أطباء الصحة العامة من العراقيين و البريطانيين العاملين في سلطة الإنتداب إلا أنها لم توثق و تبرمج كتخصص قائم بحد ذاته و مورست ضمن المستشفى العام الواقع في بغداد (المجدي) نسبة إلى السلطان العثماني (عبد المجيد) و الذي سمي لاحقاً بالمستشفى الملكي بعد تأسيس الدولة العراقية .

غير أن البداية الحقيقية للطبابة العقلية الحديثة تمثلت بانشاء أول مستشفى للأمراض العقلية و العصبية أطلق عليها اسم دار الشفاء بعد تحويل بناية قديمة يعتقدونها اصطبلاً للحيوانات أصلاً كائنة في منطقة باب المعظم إلى يمين المستشفى الملكي العام في بغداد عام ١٩٢١ م إشتهل المبنى على ساحة وسطية كبيرة مكشوفة و قاعات صغيرة مسقفة مع أثاث بسيط و عدد محدود من الأسرة خصصت للمرضى العاجزين ، رغم ارتباطها و قربها من المستشفى المركزي إلا أنها عدت بمثابة دار (حجر) لحجز و إيواء المعتوهين و المختلين عقلياً و بالأخص ممن يشكلون خطورة في المجتمع و المصابين بحالات الهياج الشديد و القادمين من خارج العاصمة و كانت إجراءات إدخال المرضى تتم عن طريق الشرطة المحلية و بأمر قضائي من المحكمة الشرعية و يعتقد أن المراقبة التمريضية لزوال النوبة الحادة كان هو المعيار الأساسي للتحسن السريري للمرضى و من ثم إخراجهم و مما يثبت صحة هذه النظرية أن الأحصاء الشهري لعدد المرضى الداخلين يقارب عد المرضى الخارجين و الذين يدخل في ضمنهم عدد المرضى المتوفين حيث لم

سرير و على أسس علمية و خدمية لائقة بقرارات صادر من لجنة تنسيقات التدريسات السريرية في المستشفى الملكي الطبي المكونه من العميد ومدير المستشفى و بإدارة الأطباء الإختصاصيين ،الدكتور جاك عبودي والدكتور صفاء الدين حامد و الدكتور علي كمال (الفالسطيني الجنسية) عام ١٩٥٣^(٥).

الى جانب المراكز الحكومية المجانية أنفة الذكر ساهمت العيادات الخاصة في خدمة المرضى النفسي وأولهاهي عيادة الدكتور جاك عبودي المتخصصة لعلاج الأمراض العقلية و العصبية و التي افتتحها في مايس ١٩٣٤ في منطقة رأس القرية وسط بغداد ثم توسعت فيما بعد لتشتمل على حوالي ١٠ اسرة لرقود الحالات الحادة وقد تطورت هذه العيادة إلى مستشفى خاص للأمراض العقلية لأول مرة في العراق عام ١٩٤٤ مزود بأسرة وكادر تمريضي وقسم للعلاج بالصدمات الكهربائية وسيارة اسعاف لنقل المرضى الطارئين سمي ب(دار الرشيد) ويعتقد أنه أغلق نهائياً في نهاية الستينيات و سنستعرض أدناه السيرة الذاتية لمؤسسه . رائد الطب النفسي في العراق

ولد المرحوم الدكتور جاك عبودي شابي عام ١٩٠٨ من عائلة يهودية عراقية في البصرة ودرس الأعدادية في كلية الملكة كاتوريا في الإسكندرية -مصر وتخرج بها عام ١٩٢٥ بتفوق ثم عمل موظفًا كوميًا بعنوان في مديرية المساحة العامة ثم استقال لينضم إلى كلية الطب الملكية العراقية في بغداد عام ١٩٢٧ ليتخرج بعدها في الدورة الأولى ٢٨-٧ ١٩٣٢ بالترتيب الثاني ضمن ثمانية ناجحين من اليهود و النصارى و المسلمين تم تسجيلهم ونيلهم إذن الممارسة الطبية وفقاً للمادة ١٣ من قانون ممارسة الطب ما لبث أن التحق

(الشماعية) للأمراض العقلية عام ١٩٥٣ في صاحبة شرق بغداد بسعة ٤٠٠ سرير ابتداءً ثم أستمرت في التوسع و التطوير لتصل إلى ١٣٠٠ سرير مع عيادة خارجية و عدة اقسام متخصصة و في عام ١٩٦٠ تم هدم بناية مستشفى دار الشفاء بالكامل و نقل جميع النزلاء إلى مستشفى الشماعية الجديد^(٣).

أخذ الوعي بالطب النفسي يتزايد مع تأسيس عيادة خارجية للأمراض العصبية ملحقة بالمستشفى التعليمي الملكي ليومي السبت و الخميس بأشراف المرحوم الدكتور هاشم الوتري الذي تولى عمادة كلية الطب لاحقاً و التي بدأت بواقع يومين في الأسبوع لتتوسع إلى عيادة مزدحمة بالمرضى للحالات العقلية و العصبية على حد سواء طيلة ايام الأسبوع مع كونها مركزاً لتدريب طلبة الصف الخامس (المنتهي) عام ١٩٣٦ و قيل أن عدد المراجعين اليومي كان يتجاوز المائة ،علمًا أن التدريس النظري لمادة الصحة العقلية كان مدرجاً ضمن المنهاج التدريسي للكلية عام ١٩٢٩ بأشراف المحاضر البريطاني لطب الجملة العصبية^(٤).

إضافه إلى هذا اشتملت بناية المستشفى العسكري الملكي على عيادة خارجية للأمراض العقلية و العصبية و ردهة لإدخال المرضى من أفراد القوات المسلحة مطلع الأربعينيات^(٥).

بعد إنشاء مستشفى الشماعية لإيواء المرضى المزمنين بالدرجة الأولى ظلت الحاجة مستمرة لإنشاء وحدة تعليمية و علاجية للأمراض النفسية الحادة ونظرًا لغياب التخصيصات المالية لإنشاء مبنى خاص فقد تم تحويل الردهة الثالثة في المستشفى التعليمي الملكي إلى قسم خاص لرقود المرضى العقليين اشتمل على ٢٢

القطر وبعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧ اختزل ممارسته الطبية إلى أضيق الحدود وانكفأ في داره معظم الأحيان ولم تشير المعلومات المتوفرة إلى تعرضه لمضايقة سياسية أو قانونية أو من قبل الناس ، حتى غادر القطر نهائياً بموافقة من مدير الأمن العام آنذاك إلى بريطانيا عام ١٩٧٢ حيث عمل كطبيب نفسي في سجن (بركستون) في لندن حتى وفاته هناك عام ١٩٨١ .

الاستنتاج

دللت هذه الدراسة على جملة من الاستنتاجات منها :

١- أن المؤسسات الصحية الرائدة في مطلع القرن العشرين ، قد نجحت في استقطاب المرضى على الرغم تدني مستواها العلمي والخدمي وانتشار الجهل بطبيعة الأمراض النفسية و بذلك تكون قد ساهمت في نشر الوعي الصحي لدى العامة وخلق ثقنتهم بها كونها حكومية ومجانية ويمكننا اعتبارها الركيزة الأساسية لنظام الطب النفسي في العراق .

٢- أن إنشاء برنامج تعليمي و تدريبي كومي في الطب النفسي داخل وخارج طر ومنذ الثلاثينيات قد ساهم إلى حد ير في تشجيع أجيالاً عديدة من الأطباء للتخصص في هذا المجال .

٣- أشارت الوثائق الأرشيفية إلى وجود الضوابط الإدارية و الرقابية على السلوك المهني للأطباء في الممارسة الوظيفية و العمل لخاص رغم ندرتهم وحادثة النظام الصحي مما يدل على قيام وجود نوع من الرقي و العصرنه في الآداب المهنيه قبل تأسيس النقابات و الجمعيات .

٤- أضطلع أول الأطباء المتخصصين بالطب النفسي بدور رئيسي في تحسين صورة المرض العقلي واخرجه من دائرة الشعوذة عن طريق اصلاحاته الإدارية و

بالبعثة الدراسية على نفقة الحكومة العراقية إلى بريطانيا لنيل شهادة الاختصاص في الأمراض النفسية (D.P.M) , ليعود بعدها في ١٦-٢-١٩٣٤مباشراً وظيفته في مستشفى الأمراض العقلية (دار الشفاء) كأول أختصاصي في الطب النفسي في القطر وكلف باقيام بالتدريب السريري لطلبة كلية الطب بلقب (معاون محاضر) بعد منحه لقب الاختصاص من قبل مدير الصحة العام وافتتح عيادته في نفس العام وفق ضوابط ادارية في ضرورة ممارسة المهنة في حدود التخصص وبعد الظهر تحديداً وبعد أول من استعمل العلاج بالصدمات الكهربائية في عيادته الخاصة عام ١٩٤٤ حسب الوثيقة الصادرة من دائرة الإستيراد.

انتدب للعمل في تدريس مادة الصحة العقلية في كلية الطب بعد منحه لقب (محاضر) في ١٩٣٩ رفع بعدها إلى لقب (استاذ مساعد) عام ١٩٤٢ ثم كلف رسمياً بتولي إدارة مستشفى دار الشفاء عام ١٩٤٢ بأمر من وزير الشؤون الإجتماعية وبعد قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ ، رفض الهجرة وتمسك بجنسيته العراقية وحصل على جواز سفر خدمه وتسهيلاً حكومياً بسفره وعائلته تقديراً لمكانته العلمية ،مثل العراق في مؤتمر للطب النفسي في لندن ومؤتمر للجراحة العصبية في لشبونه عام ١٩٤٨ .

في ٣-٤- ١٩٥٤ أحيل إلى التقاعد حسب طلبه لأصابته بمرض تصلب الشرايين وورد في تقريره السري الصادر من عمادة كلية الطب أشاده بحسن سلوكه وانضباطه الوظيفي وتولى الدكتور معمر الشابندر بعده إدارة مستشفى دار الشفاء حتى زوالها عام ١٩٦٠ .

تفرغ تماماً للعمل في عيادته ومستشفاه المزدحمة دائماً بالمرضى من كافة أرجاء

لم تقف حقيقة انتماءه إلى الطائفة اليهودية عائقاً أمام بزوغه في المجتمع واكتسابه لحب واحترام السلطة و الجمهور في عهد شهد تقلبات سياسية عديدة .
توصي هذه الورقة بأعداد قاعدة معلومات لسير الأطباء الرواد في الوطن العربي وتوظيف المعلومات المستحصلة منها في تحليل المناخ الثقافي و الإجتماعي المحيط بمفاهيم الطب النفسي .

التزامه بممارسه تخصصه حصراً في أول عيادة طورت لاحقاً إلى أول مستشفى أهلي وعلى أسس عصرية ولا يغفل دورها في إسناد الجهد الطبي الحكومي في وقت مبكر قياساً إلى الوضع العام في العديد من المجتمعات العربية المشابهة .
يستشف من تلك السيرة الذاتية لرائد الطب النفسي صورة عن جو التسامح الديني المتأصل في نفسية الفرد العراقي و تعايشه مع الأقليات الدينية و العرقية حيث

الخلاصة

تهدف هذه الورقة إلى توثيق تاريخي لبدايات منظومة الطب النفسي المعاصر من خلال دراسة السيرة الذاتية لأول طبيب نفسي في المملكة العراقية .
استخدمت المضيرة الشخصية للطبيب الرائد كمصدر أساسي للمعلومات مع المقابلات المباشرة لبعض الأطباء و المرضى ممن عاصروا تلك الفترة و قلة من التقارير المعنية
أوضحت هذه الدراسة الدور الرئيسي الذي قام به الأطباء الرواد في تكريس مفهوم عصري للصحة النفسية في بدايات القرن العشرين من خلال عملهم في إنشاء مراكز علاجية و تدريبية حكومية و إسهامهم في خدمة المريض النفسي في القطاع الخاص أيضاً كما أشارت إلى ضرورة الأستعانة بالوثائق الشخصية من أجل دراسة و تحليل الوقائع التاريخية المتعلقة بالطب النفسي و محاولة فهم المناخ الإجتماعي و الثقافي المحيط بها .

References

- 1-Younis MS . Psychiatric Clues With Historical Roots in Iraq, The Arab Journal of Psychiatry. Vol,12 ,No .2 ,November 2001.
- 2-Bazzoui W , Al-Issa I . Psychiatry in Iraq. Brit.J.Psychiatry 112(489) ;827. 1966 .

المراجع العربية

- ٣- تاج الدين ، محمد (١٩٧٨) . من مضبرة الماضي (دار الشفاء) ،مجلة الرازي ،العدد الأول ،السنة الأولى : جمعية أطباء الأمراض العصبية و العقلية العراقية .بغداد
- ٤-الفكيكي، أديب (١٩٩٣) . تاريخ أعلام الطب العراقي الحديث ،الجزء الثاني ،الطبعة الأولى دار الحرية للنشر. بغداد .
- ٥-الدكتور جاك عبودي (الأضبارة الشخصية)قسم الأرشيف ،عمادة كلية الطب .بغداد .
- ٦-المنهاج التدريس لكلية الطب الملكية العراقية ١٩٢٩ . الدكتور سعد هاشم الوتري .مقابلة شخصية . بغداد .
- ٧-الدكتور علاء الخالدي (أستاذ علم العقاقير-جامعة بغداد) .مقابلة شخصية .بغداد .
- ٨-الدكتور طارق خماس (استشاري الطب النفسي-أبوظبي) مراسلات شخصية .

Correspondence:

Dr. Maha Suliaman Younis

F.I.C.M.S ,C.A.B.P

Assistant professor in psychiatry-Faculty of Medicine –Baghdad University

Baghdad-Iraq

Maha.younis@gmail.com